مـن تـراثنـا الحـديـث

نـحـو ثـقـافـة متحـررة

عبـد اللـه ابراهيـم

ابتداء من العدد السابق شرعنا في تخصيص جانب من المجلة لتراثنا الحديث ، وقد افتتحنا هذا الجانب بنشر بعض النصوص التي كتبت والقيت اثناء احتفال المغاربة بذكرى المتنبي سنة 1935 .

"ما في هذا العدد فنعيد نشر نص هام للاستاذ عبد الله ابراهيم هو عبارة عن محاضرة القاها بمراكش بدعوة من « جمعية الاديب » ، ونشرت بالعدد (6 ـ 7) من مجلة « رسالة الاديب » التي صدرت منها اعداد تسعة باشراف وادارة الشاعر محمد الحبيب الفرقاني في الفترة المتراوحة بين يناير 1958 ومـاي 1959 .

وسنحاول في اعدادنا القادمة تقديم نصوص اخرى لها اهميتها التاريخية في ثقافتنا الوطنية ، ونكاد نكون اليوم مجهولة تماما بالنسبة للقارىء المغربي.

اخـوانـي اخـواتـي

اني اشكركم على حضوركم هنا ، كما اشكر « جمعيـة الاديب » ان اتاحت لنا هذا الاجتماع ، وان موضوع اليوم هو : نحو ثقافة متحررة .

اذا كانت شؤون الحياة اليومية تاخذ في أغلب الاوقات أكبر قسط من نشاطنا ، واذا كانت ظروف الكفاح التي خضناها كانت تشغلنا في كثير من الاحيان عن التفكير ـ فاننا الآن ـ ونحن على أهبـة الانغمار في معركة جديدة هي معركة البناء ـ يجب علينا أن نلتفت الى الناحية الفكرية ونعطيهـا مـا تستحق من عناية ، فان أعمالنا كيفما كانت يجب أن تصدر عن فكر ، فقديما قال شاعرنا المتنبـي :

الـرأي قبـل شجـاعـة الشجعـان

هـو أول وهـي المحـل الـثـانـي

كما يجب ان تكون اعمالنا في بناء الاستقلال على اسس متينة يجب أن تكون هذه الاعمال قائمة على دعامة قوية من الفكـر .

مـا هـي الثقـافـة ؟

لا اريد ان اضيع وقتكم في سرد الخلافات الطويلـة في معنـى كلمـة

« الثقافة » فالظاهر ان كلمة الثقافة من الكلمات المطاطة التي تستعصي على التحديد . فنحن لا نجد تعريفا لكلمة « الثقافة » الا ونجد من ناحية أخرى نقادا ينتقدون هذا التعريف . ومع ذلك فيمكن أن نحدد الموضوع فان هناك اتجاهين اثنين في تحديد الثقافة

- هناك اتجاه لاتيني على وجه العموم
- هناك اتجاه جرماني أو المـانـي

فالثقافة عند الالمان هي كلمة ترادف معنى الحضارة فالثقافة أو « الكولتور » - كما يسمونها - هي عبارة عن كل ما تنتجه امة سواء في الناحية الفكرية أو الحضارية فالبنايات الضخمة ، والشوارع المهمة والحدائق اللطيفة ، والقصائد الشعرية ، والروايات القصصية ، والافكار الفلسفية ، كل ذلك يمثل ثقافة أمة ، فالثقافة اذن عند الالمان هي مجموع ما تنتجه الامة سواء من الناحية المادية أو من الناحية العقلية ، فالثقافة عند الالمانيين ليست فقط ما انتجه هيجل وكانت وغيرهما من مئات أبطال الفكر الالماني ، ولكنها أيضا هذه البنايات الضخمة ، وهذه المؤسسات الاجتماعية في المانيا ، وكل ما انتجته الحضارة الالمانية ، وكل ما يدل على المانيا كل ذلك تجمعه كلمة « كولتور » أو كلمة « الثقافة »

هناك معنى آخر لكلمة « الثقافة » ، وهو المعنى السائد عند غير الالمان أو بالاولى عند الشعوب اللاتينية كالفرنسيين والاسبان والايطاليين ، فالثقافة عند هؤلاء ليس لها مدلول مادي بجانب المدلول العقلي ، ولكن الثقافة هي مجموع ما انتجه الفكر في الامة ، مجموع هذه القصائد ، وهذه القصص، وهذه المذاهب الفلسفية أي كل ما انتجه العقل فقط اما الحضارة فلها معنى آخر لا يمكن ان يختلف عن الثقافة ، فالثقافة اذن على هذين الاتجاهين اما أن يكون لها مدلول أعم بمعنى كل ما انتجه الانسان في وطن من الاوطان ، أو كل ما انتجه الفكـر في أمـة .

فالثقافة ليست هي العلم : العلم هو جميع المعلومات التي يصل اليها الانسان ، فالعلم اذن من المسائل التي لا تعرف ، ولذلك أرادني اتناقض في هذا التعريف فاقول ان العلم هو المعلومات ، وادخل كلمة المعلومات التي هي مشتقة من العلم ، وذلك يرجع الى أن العلم هو من الكلمات التي لا يمكن ان تعرف ، ولكن العلم كيفما كان الحال هو هذه المعارف ، هذه المعلومات التي تستند على العموم الى التجربة ، وتعتبر معلومات من حالتها الاصلية ليست لها صلة حتميا وبطريقة حتمية بالناحية العلمية . أما الثقافة فلها جانب أو محتوى علمي ، فالمثقف ليس عالما فقط ، ولكنه تثقف أو تمرن فكره ، وأصبح مستقيما كما يستقيم العود بعد نحته . وكلمة الثقافة في حد ذاتها أو **Culture** بالفرنسية انما تعني جانبا عمليا في معنى الكلمة . فكلمة

الثقافة في العربية أخذت من ثقف العود أو السهم أي قومه وجعله مستقيما . وبالفرنسية فان كلمة Culture آتية من كلمة تدل في معناها الاصلي على الفلاحة ، فالفلاحة اي فلاحة الفكر . أي العناية بالفكر . كما يعنى الانسان بالتربية يعنى بالفكر . وهذه هي الثقافة . فسواء بالمعنى الفرنسي أو بالمعنى العربي . فكلمة الثقافة لا تعنى العلم فقط . ولكنها العمل أيضا .

اذا خرجنا من هذه المقدمة التي تدور حول الكلمة نفسها التي تكون جزءا من عنوان الموضوع ، يمكننا ان ندخل في صلب الموضوع لنلقى نظرة عابرة على مختلف التيارات الثقافية التي سادت العصور الحديثة .

ليس من الممكن أبدا ان يستعرض الانسان جميع التيارات وجميع الانواع الثقافية التي لا تقبل الحصر ، وهي تتعدد على نفسها عند كل أمة وفي كل لغة . ولكن الذي يعنينا هو العناوين الكبرى للتيارات الثقافية ، وهي تتلخص في خمس تيارات . كل تيار منها ينقسم على نفسه الى عشرات من الانواع .

هناك تيار في الثقافة الالمانية . والمانيا تلعب دورا كبيرا في الفكر ، ومفكروها وعلماؤها كان لهم القدح المعلى في المدنية الحديثة ، فالاتجاه العام أو التيار الذي كان يغمر الثقافة الالمانية منذ قرون هو تيار مثالي ، تجريدي يتناقض مع الواقع أو على الاقل ينفصل عن الواقع ، هذا التيار التجريدي يسمى في عرف الفكر الاوربي بالتيار « الايديالي » او « المثالي » . فالالمانيون لم يتخيلوا حقائق واقعية أولا . ولكنهم تصوروا العالم على فكر مثالي ، على مجموعة من المبادىء والافكار ، ولكن تلك المبادىء التجريدية هي من القوة بحيث تدخل في طور ما من تطوراتها نحو الواقع ثم تعود فتكون فكرا . فالثقافة الالمانية هي ثقافة ايديالية أو ثقافة مثالية ، والانسان فيها قبل أن يكون شخصا يمشي على رجلين كان فكرة ، وهذه الفكرة تطورت بشكل وبقيت تتطور فاكتسبت القوة اللازمة لتجسيمها فأصبحت رجلا . والمثقف الذي خلق هذا الاتجاه ، ولعب دورا كبيرا في الفكر الانساني العصري هو الرجل الالماني « هيجل » ... فهيجل قرر ان من خصائص الانسان انه لا يقف عند الواقع فقط ولكنه يتطور ويدخل في عالم التطورات . ويستقل عن الواقع ليمكن أن يحكم هذا الواقع ، وايا ما كان الحال في نظر هيجل فهي فكرة ، هذه الفكرة هي الكمال المطلق .

وهي قوة منبثقة عن الجسم ، هي روح لها جميع القوى ، وتتسم بجميع الصفات الكمالية ، وتتنزه عن النقص ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تحتوي على عناصر متناقضة هي التي جعلت منها حركة دائبة وأصبحت هذه الحركة في تفاعل الى ان تكون العالم .

فقبل أن يكون البشر اذن كانت فكرة العالم الحقيقي عند هيجل هو

عالم التطورات التي تستحيل بها الى الواقـع .

هذه الفلسفة وهذا التفكير المثالي الذي تقمصه رجل كهيجل كان له تأثير كبير في المانيا ، وكان جميع المفكرين يستمدون منه على نحو أو على نحو آخر ، وكان الى جانب هيجل « كانت » الذي يعتبر هو ايضا رجلا مثاليا . سار على أفكار مثالية مبنية على توازن بين الفضائل ، وعلى الخير المطلق قبل أن يكون الانسان ، فما الانسان اذن الا مظاهرة من مظاهـرات الخيـر المطلق في تطوره نحو الكمال المطلق .

وبجانب الفكر الالماني الذي كان يصطبغ بصبغة مثالية تجريدية ، نجد الفكر اللاتيني يصطبغ بصفة حسية ، والذين يفكرون هذا اللون مـن التفكير هم في فرنسا رجل كديكارت ، ديكارت الذي كان له أثر كبير في الثقافة الفرنسية ، اذ قرر لاول مرة ان العلم مصدره هو الواقع ، هو مـا يحسـه الانسان ، فاحساس الانسان يبتدىء بالمقدمة الاولى في تفكيره ، اذن هذا النوع من التفكير يقوم على الحس ، ولذلك سميت جميع الاتجاهات الفكرية في فرنسا بنزعة الحس و « النزعة الحسية » أي « صانتياليسم » ـ التـي تقابل الاتجاه الالماني الذي سيطر على الثقافة الالمانية على العموم . وهـو الاتجاه الذي يسمى « الاتجاه المثالي » « ايديالسم » .

ويمكن أن أجمل لكم الفرق بين التيارين بأن الالماني عند ما يـرى شيئا أمامه ، عندما يرى مثلا شخصا امامه لا يفكر لا في عينيه ولا في قامته ، وانما يفكر في الاطوار الاولى التي تطور منها هذا الشخص قبل ان يتقمص جسدا فالفكر الالماني هو فكر غائب عن الواقع ، ويحاول أن يفهم الواقع من عالم الغيب ومن ثم كانت النزعة التي تسيطر على الفكر الالماني هي النزعة المثالية التي لا تقف أمام الواقع الذي يشاهده الانسان بعينيه ، وانما يريد أن يتجاوز الواقع ويبتعد عنه ليجد له تفسيرا ، اما الفرنسي فانه عندما يجد امامه الاشخص يحاول ان يلمسه ويحسه ليقول انه موجود ، فثقافة الفرنسي اذن ثقافة مبنية على الحس المباشر ، لا على الهيام الفكري في عالم الغيب ، ومن ثم كانت الثقافة الفرنسية المصطبغة بصبغة الحس ثقافة لطيفة خفيفة الروح لا تتطلب جهدا في التفكير وليس فيها على العموم أي عمق أو عمقها يتسم دائما بسمة اللطافة التي لا تخرج بها عن المحسوس .

وهذا ما قد يفسر هيام الناس في جميع أطراف العالم بالثقافة الفرنسية لسهولتها وسلامتها ، وللطفها ، وفي الوقت نفسه يفسر ان الثقافية الالمانية نظرا لصبغتها التجريدية ، ولعمقها في التفكير تتطلب مجهودا كبيرا في التفكير ليس في متناول الناس كلهم .

فجانب هذين المذهبين : المذهب التجريدي الذي يرى المفكر فيه نحو السماء ليفهم المقصود ـ والثقافة الفرنسية التي تلمس المحسوس ، وتمس

باليد لتقول بانه موجود ـ بجانب هاتين النزعتين . هناك نزعة تجريبية أو نزعة « البراجماتزم » وهي النزعة التي صبغت التفكير الانجلوساكسوني في انجلترا أولا ، وفي اميركا ثانيا ، ثم في الشعوب الاوربية التي تأثرت بالثقافة الانجلوساكسونية .

هذه النزعة التجريبية أو « البراجماتية » هي نزعة واقعية ، لا تريد أن تفكر شيئا ، وانما تقوم على الملاحظة ، ولا تريد أن تفهم الناس شيئا وانما تصف للناس ما ترى . وهي مجرد صورة فوتوغرافية للواقع . واذا ما كتب الكاتب يتحدث عن مشكلة اجتماعية ، فلا يعنيه من ذلك أن يفسر جوانب من هذه المشكلة ولا أن يرجع أصولها لنظرية من النظريات ، وانما يكتب الكاتب عن المشكلة الاجتماعية بفكر متحرر عن كل مبدأ ، وبعين تشبه عدسة المصور ويصور الأشياء كما يراها من غير أن يحاول تفكيرها ، أو توجيه الآراء في استعراضها فهي نزعة الواقع . نزعة التجربة ولكنها في الوقت نفسه هي نزعة تحدث قلقا لان النفس الانسانية والطاقة متعطشة دائما الى التفسير والايضاح . واذا قرأنا رأي بعض ما كتبه الامريكان مثلا في قصص تصور بؤسا في المجتمع كما فعل « سيمياك » في قصته المشهورة « ان تملك أو أن لا تملك » فانما تجد هؤلاء الكتاب يصفون لك قلق المجتمع كما تفعل عدسة المصور ، ويحدثون في فكرك قلقا واضطرابا للعناصر المتناقضة التي يأتون بها في عرضهم ، وأنت تظن انك اطلعت على البؤساء في ضياعهم وبؤسهم . واطلعت على الجهود الضائعة التي يتركها المتشردون في الطرقات ، من غير أن تعرف لماذا كان هذا البؤس ، وهل هناك عناية بهذا البؤس ومن ثم كانت النزعة البراجماتية أو النزعة التجريبية السائدة عند الانجلوساكسون ، نزعة فوتوغرافية للواقع ومن ثم كانت ناقصة ، لانها لا تفكر ، وانما تلتزم الحياد فيه .

وبجانب النزعة المثالية الالمانية ، والنزعة الحسية أو الاحساسية السائدة في الاداب الفرنسية ، وبجانب النزعة التجريبية أو البراجماتيزية السائدة عند المفكرين الانجليز أو الامريكان ـ توجد نزعة أخرى سادت الاداب الروسي . وتطورت تطورا مناقض البداية . وهذه النزعة تشبه شيئا ما النزعة البراجماتيزية التي سادت الانجلوساكسون . ولكنها في الواقع تختلف عنها اختلافا جوهريا ، اختلافا في الطبيعة ، اختلافا في التوجيه ، اختلافا في كل شيء ـ هذه النزعة هي التي سادت الادب الروسي في الوقت نفسه ـ التي تطورت تحت الثورة الروسية ، واتجهت في الآداب العالمية اتجاها فريدا من نوعه ، هذه النزعة يمكن تسميتها أول الامر بـ « النزعة الواقعية الميتافيزيقية » على ما في هذه الجملة من تناقض في التعبير فالواقع لا يهتم في الغالب بالحقائق الميتافيزيقية أو حقائق ما وراء الطبيعة ،

فالواقع هو من صميم الطبيعة . بينما الميتافيزيق هو من وراء الطبيعة . ـ هذه النزعة ظهرت في الآداب الروسية في القرن الماضي أي قبل الثورة الشيوعية ، وكانت تتقمص هذه النزعة أعلام في القصص الروسي مثل **دوستويفسكي ونيكولا كوكول .. وشيكروف** . وغير هؤلاء من الذين انطبع أدبهم على العموم بطابع واقعي ولكنه ينظر الى الله والى وراء الطبيعة من خلال أعمال الانسان التي يصفها هؤلاء الكتاب .

اقرأوا مثلا « الارواح الميتة » التي كتبها **نيكولا كوكول** فانتم ستجدون فيها وصفا لاذعا لجميع الطبقات التي تعيش في روسيا ابان **نيكولا كوكول** .

وكوكول هذا الذي يصف الواقع وكأنه آلة فوتوغرافية ، كان في الوقت نفسه مفكرا متدينا حائرا من آثام الناس . وكنت ترى من خلال « ارضيته » ان صح هذا التعبير ، ترى رجلا ملائكيا يحاول أن يتشبث بالمبادىء العليا للمسيحية ، ويريك بؤس الانسان وآثامه وذنوبه تحت سيف العدل الالهي . فنحن عندما نقرأ الرواية الكبرى « الارواح الميتة » ـ تجد انفسنا أمام مجتمع مضحك ، تجد الفلاح على بساطته ، والمثقف المزيف يخدع الناس وتجد الحاكم يرتشي، وكل آثام روسيا، وكل آلام المجتمع تستعرض أمامك، ولكنك ترى من وراء ذلك عقوبة الهية لهؤلاء الناس ، وترى آثامهم مجرد جزاء عن ضياع القيم الانسانية للمسيحية في نفوسهم وفي شعورهم ، وعندما ترى مؤلفا آخر مثل « **ديشويفسكي** » ترى بؤس الانسان كما ترى في نفس الوقت السلطة التي هي من وراء الطبيعة تسيطر على الوصف الدقيق الفوتوغرافي لاعمال الانسان فـ « **تيدور دوستويفسكي** » في رواياته المتعددة ، كان يقدم لنا وصفا دقيقا لمجتمعه ولكننا نشعر بأن هذا المجتمع الحسي السطحي الارضي محتد بخطوط خفية ـ تكاد تتصل في فصول الرواية بعالم غيبي فيه الجزاء وفيه المكافاة ، نرى مثلا عرض **دوستويفسكي** ـ في روايته « جريمة وعقاب » طالما عاش عيشة البؤس ، وقد نجح الى حد كبير دوستويفسكي في وصف حياة البؤس عند الطلاب . وهي حياة نعرفها عند جميع الطلاب . وهي بئيسة ولكنها في الوقت نفسه حياة جميلة . لان الطالب يعاني فيها آلام الفاقة من ناحية ولكنه في الوقت نفسه يحاول ان يكرع من مناهل العلم . وان يثقف نفسه متناسيا أو متجاهلا البؤس الذي يرتطم فيه . فالطالب اذن في رواية « جريمة وعقاب » لدوستيوفسكي عاش في البؤس ، وكان مكبا على العلم ، وكان لا يجد ما يأكل مدة اليومين والثلاثة ، وكانت بجانبه امرأة عجوز ، وكانت تخزن الذهب والفضة ، وكانت تعيش شر معيشة ، وكانت تكتري له البيت ، وتجرعه الويلات اذا هو لم يدفع لها ثمن الكراء .

واعتقد بأن هناك دورا في الحياة ، لان هذه العجوز التي تكنز الذهب

والفضة لا تصرف ذهبها ولا فضتها بل تكنزهما تحت الارض وفي الوقت نفسه من أسباب بؤس هذا الطالب لانها لا ترحمه في آخر الشهر وهي تطالبه بان يدفع الكراء . ـ ويفكر الطالب في نفسه فيجد أنه عنصر خير . وبأنه لا يجرم ولا يرتكب أي جريمة ، وانما كل همه في الحياة أن يكرع من مناهل العلم وان يتثقف ، ولكن هذه العجوز كانت تمثل في نظره مجتمعا بخيلا مجتمعا قاتما أحمق . ومع ذلك فهو يمد سيطرته على عناصر الخير .

تطورت هذه الفكرة عند الطالب ، فانتهى أول الامر بأن اقتنع بأن هذه العجوز التي تكنز الذهب والفضة ولا تعرف ما تفعل بهما يجب أن تزاح من الارض ، فكر الشاب اذن في الجريمة ، وذات يوم دخل الشاب على العجوز وذبحها ذبحا ، واستولى على الكنز الذي كان مختبئا ، وحاول ان يعيش سعيدا ، وأن يستمر بفكر مرتاح في طلب العلم .

الى هذا الحد كان دوستويفسكي رجلا ارضيا ماديا يصور لنا مأساة نحسها جميعا ليس في روسيا فقط ولكنها مأساة جميع الشعوب، ومأساة جميع الطلاب ، وجميع العجائز اللائي يكنزن الذهب ويعشن في البؤس .

ولكن تظهر هذه الواقعية الميتافيزيقية عند ما يثب بنا دوستويفسكي فجاة الى افق آخر ، في سماء اخرى ، فيرينا هذا الطالب بعد ان قتل العجوز وقد رجع عن كل افكاره وشعوره ، وتسمم وجوده ، واصبح يعتقد بأن الجريمة التي ارتكبها هي جريمة لا يمكن ان تغفر . ـ استطاع أن يهرب من يد البوليس ، استطاع ان يقنع الناس جميعا ببراءته ، لان أية شبهة لم تحم حول الطالب . واستطاع في الوقت نفسه أن يأخذ المال دون ان يعرض نفسه لاية عقوبة ولكن هناك عقوبة اكبر من كل عقوبة . وهناك محكمة اكبر من كل محكمة ، تلك العقوبة هي عقوبة الضمير . وهذه المحكمة هي محكمة الضمير .

وهناك اتجاه خامس بين هذه الاتجاهات . وهو « النزعة الواقعية الاشتراكية » التي تتمثل في هذا المنحى الكفاحي الذي يتزعمه ادباء البلدان التي تنزع في حياتها واقتصادها وقيمتها نزعة اشتراكية ، وهي النزعة التي يعنى فيها الكاتب بوصف الكفاح الذي يخوضه المجتمع ضد الطبيعة لاخضاعها لسلطانه أو ضد القوى الطاغية التي تصدر عن الظلم ومظاهر الاقطاعية والاستبداد .

اذن هناك في التيارات الادبية :

النزعة المثالية التي سادت الثقافة الالمانية

والنزعة الحسية التي سادت الثقافة اللاتينية .

والنزعة التجريبية أو « البراجماتية » التي سادت الثقافة الانجلوساكسونية .

والنزعة الواقعية الميتافيزيقية التي سادت الآداب الروسية .

ثم النزعة الحديثة التي ترعرعت في البلاد ذات المذهب الشيوعي التي تدين بالواقعية الاشتراكية .

فالاديب انما يصف المجتمع في حالة الكفاح ضد عناصر الطبيعة ، ويريد أن يسجل من خلال رواياته الانتصارات التي ينتصرها الانسان لتسخير الطبيعة لاغراضه .

هذه هي النزعات الكبرى التي سادت الفكر .

وندخل للجزء الثاني من المحاضرة لنتساءل : ما موقع مغربنا من هذه التيارات ؟ وهل يمكن أن نحدد موقفنا منها ؟ ما هو ـ بالاجمال ـ الاتجاه الذي تسير فيه ؟

هنا للاسف ـ نجد حقائق مؤلمة ! ذاك أن المغرب عاش اولا في أصعب الظروف بالنسبة للفكر . وبالاخص في القرون الاخيرة . فالفكر المغربي طيلة عدة أجيال كان فكرا منحجرا في ثقافة فقهية تقوم على الحفظ وتضعف ملكة التفكير . وكان نظام التعليم السائد في بلادنا يشجع ضعف الفكر . وقوة الحافظة ، فكانت النتيجة ان شبابنا كان يصرف من الجهود مالا يصرفه الا القليل والقليل جدا في بلاد الغرب ، ولكن كانت النتيجة عندنا نتيجة سلبية ، فكنت تجد الشخص يحفظ القرآن الكريم وربما يحفظه بالروايات ، ويحفظ الشيخ خليل ، ويحفظ الآلاف من الابيات الشعرية ، وبالاخص من الشعر التعليمي فتنمو حافظته ، ولكن فكره يبقى في طور الطفولة .

هذه الحقيقة المؤلمة اثرت في ثقافتنا ، فكانت الثقافة المغربية تضيع في سنني « الحضار » (1) وفي حفظ المؤلفات الكبيرة عن ظهر قلب وفي الوقت نفسه في حبس ملكة التفكير ولا عجب ان سادت في المغرب نزعة الحفظ ، وبقي التفكير المغربي يتعثر ، ويبقى في الغالب في مستوى الطفولة لان الحافظة لا توافق التفكير في شيء .

كان هذا جانبا مفجعا لانه عرقل سير الثقافة في المغرب ، كما عرقلها في البلاد العربية والاسلامية . وكان بجانب هذه العائقة عائقة أخرى هي أن ثقافتنا الصحيحة قد تجاوزها الزمن ، لان الثقافة الصحيحة عندنا ثقافة اسلامية عربية ، والثقافة العربية مرت بعصور الركود بالعصر الذي انهارت فيه الامبراطورية العربية ، وساد الاتراك الرقعة الاسلامية على العموم ، وكان الاتراك قوما عجما لا يتكلمون بالعربية ، وكانت سلطتهم هي السائدة في البلاد العربية ، فتبربرت الالسن ، وضعف التفكير العربي ، وانحط الانتاج في جميع البلدان العربية ، فاصبحت ترى انتاجا مهلهلا ضعيفا ركيكا ، وانفصل

(1) الحضار هو المسيد « الكتاب » مدرسة الاطفال التقليدية لحفظ القرآن .

بطبيعة الحال عن التفكير ، فاصبحنا نرى التزويقات اللفظية ، ومن ثم جئنا في المغرب فوجدنا ثقافة قد غلفت سنين من الركود السياسي الذي ساد البلاد العربية ، ووجدنا ان الاحتلال التركي في البلدان العربية قد عرقل الثقافة فيها ، ووجدنا أنفسنا فجاة مع عالم الغرب الذي تطورت فيه الاتجاهات الثقافية التي تحدثت لكم عن الخطوط الكبرى فيها ، فوجدنا قوما لا يتكلمون العربية وانما يتكلمون بلغاتهم الاوربية . وقد تطور تفكيرهم فاصبحنا لا نستطيع ان نفهمهم لاننا مثقفون بثقافة عتيقة ظلت أزمانا تتخبط في ظل الانحطاط الذي ساد العالم الاسلامي .

جاء التعليم الاوربي وفتح المدارس ونشر الثقافة بحد ضئيل في بلادنا ، ولكن كان المغاربة في منهل ثقافة لا يجدون أسسها في شعورهم وفي عائلتهم ، فكانت النتيجة هو ان الثقافة التي تلقاها ابناؤنا في المعاهد الاوربية كانت ثقافة لا تمتزج باحساسنا وانما كانت مجرد علم نتلقاه . فكانت النتيجة هو أن أربعين سنة في الثقافة الفرنسية لم تستطع أن تظهر فينا كتابا كبارا ولا مفكرين كما نجد ذلك في فرنسا . وانما وجدنا اشخاصا انتقلوا انتقالا الى الثقافة الاوربية فلم يستطيعوا أن يهضموها كما هضمها أبناء هذه الثقافة .

ومن ثم أصبح تفكيرنا يستند من ناحية الى ثقافة فاتها الوقت لانها لم تتجدد ، ويواجه ـ من ناحية أخرى ـ ثقافة اجنبية لم يستطع ان يهضمها لانها ثقافة آتية من الخارج ، وأصبح في الوقت نفسه يرتطم بعائق آخر هو الانحطاط الاجتماعي الذي ساد بلادنا ، فكانت النتيجة هي أن الفكر أصبح عاجزا عن أن يقود الحياة في بلادنا ، ورأينا لذلك مظهرا عند ما انهارت جميع القيم وكثر الخونة واصبح كثير ممن يستطيعون ان يغيروا شيئا يجدون انفسهم في ركاب الاجنبي ، عند ذلك ضل الطريق ، فكنت تسمع بين الآونة والاخرى بالفتاوي لتاييد هذا أو القيام ضد ذاك . وكنت ترى القيم الفكرية تحتلها أغراض السياسة الاستعمارية ، فتورط كثير من الناس كمثقفين . ولكن مع ذلك كان هذا هو المظهر المؤلم في حياتنا .

ولم يكن بجانب هذا تيار فكري يستطيع ان يقود الكفاح . وان يقود المقاومة ، فكانت المقاومة على عكس ما وجدنا في آسيا وأوروبا قامت على عمل رجل الشارع ولم تكن عمل رجل الفكر ، فعلى العموم كانت الثورات الدامية تسبقها ثورات فكرية بشكل كتب وافكار وآداب ثورية . فاذا رأينا الثورة الشيوعية مثلا . نجد انه قد سبقتها عشرات السنين من انتاج فكري خصب وادب ثوري هيأ الافكار للثورة . ونجد الثورة الفرنسية قبل ذلك كان مهد لها رجال مثل جان جاك روسو ومفكرون كثيرون مثل فولتير ، أو سياسيون مفكرون كروبسبير . فكان هؤلاء أولا يكتبون . وكان الشعب يقرأ .

وكانت الثورة تنعكس من كتلبة الكتاب وتفكير المفكرين . فمن ثم كان الفكر أولا يثور ، ثم يثور رجل الشارع .

أما عندنا فنظرا لهذه العراقيل التي ارتطم بها الفكر ، ولسياسة الخنق التي كانت تمارسها الحماية في بلادنا تأخر الفكر . وكان الخلاص لا في الفكر ، ولكن من رجل الشارع الذي لم يفكر ، ولم يأت بفلسفة وانما شعر شعورا قويا عميقا بالواجب فقاد الفكر قبل ان يقوده الفكر . .

فما نريد اذن والحالة هذه ؟ كيف الخلاص ؟

الواقع ان الفكر هو الذي تأخر للاسباب التي ذكرت فلم يقد المقاومة وانما كانت المقاومة من صميم الشعب ، ولا يقود الفكر الآن دفة الامور لان دفة الامور هي أهداف حددها شهداء بدمائهم، ولم يحددها مفكرون بنظرياتهم .

والواقع أن المفكر المغربي لا يزال كرسيه خاليا ينتظره فبلادنا في معركة البناء محتاجة الى ثقافة تساند هذا البناء ، هذه الثقافة هي الاساس الذي سنبني عليه حضارتنا ، وما دامت هذه الثقافة لم توجد الا وسنكون مضطرين الى أن نتقهقر الى الوراء ، كلما تقدمنا خطوات ذلك ان كل حضارة يجب أن تستند الى فكر . فالثقافة التي ننتظرها لان كرسيها فارغ . لان مقاعدها فارغة ــ هذه الثقافة يجب أن تكون هي الاداة العقلية للتحرر لتحرير الشعب . يجب اذن أن تكون هي في نفسها ثقافة متحررة ، أن تكون ثقافة للشعب ، لا ثقافة خاصة ، واعني بثقافة الشعب الثقافة التي يفهمها جميع الناس بالتدريج ، وترفع الناس لمستوى النخبة وتجعل الناس يفكرون ، ويتجاوزون افق تفكيرهم اليومي ، وتجعل الناس يتذوقون نعم التفكير .

وليس هذا المرمى ببعيد ، فقد شاهدنا في المدة الاخيرة المسرح الشعبي على يد الفرقة العمالية ، شاهدناها أولا في رواية « الوارث » ثم شاهدناها كذلك في رواية « المفتش » ــ فوجدنا أن الثقافة قد تكون حقيقة في متناول الشعب اذا قدمها اليه اناس من الشعب ، فرواية المفتش كانت في الحقيقة نقلا عن الادب الروسي ولكنها ترجمت بشكل كنا نرى فيه عيوب المجتمع المغربي ، ونشاهد فيه الشخصيات المغربية . وقد رأيت بعيني الجماهير تصفق عند ما كان التصفيق مسألة محددة . وكان الجمهور يفهم النكت فعلمت ان وجود ثقافة شعبية ليس فقط أمرا مرغوب فيه ، ولكنه شيء قد يكون أمرا واقعا في أقرب وقت .

كما رأينا في نفس المسرح الشعبي الرواية الاخيرة التي أعطيت في الدار البيضاء بمناسبة ذكرى المقاومة ، وأذكر ان عنوانها كان « شوف أومكت » ــ هذه الرواية تصف مجتمعنا بشكل دقيق . وكان حماس الناس وتصفيقهم يدل على ان اولئك الناس الذين هم على أعواد المسرح يفهمون اولئك الذين هم على الكراسي فكان هذا التجاوب بين عناصر ثقافية وبين الجمهور يدل

مرة اخرى على ان الجمهور عندنا يمكنه ان يفهم الثقافة ويمكنه ان يرتفع عن مستواه اليومي .

فالثقافة التي نختظرها اذن ـ لان مكانها فارغ ـ هي ثقافة نريد ان تكون في متناول الجمهور لترفع الجمهور اليها ، والمسرح والروايات التي تعطي الآن تدل على انه من الممكن أن تكون هناك ثقافة وطنية ، ثقافة شعبية في مدة قريبة .

وهذه الثقافة يجب ان تكون في نفس الوقت عملا كفاحيا داخلا في نطاق حياة امة ، فالثقافة وشؤون الفكر . واذا قلت شؤون الفكر فاعني التمثيل ، واعني القصص ، واعني الشعر ، واعني جميع اوجه النشاط الفكري والاحساسي والعاطفي . ـ هذه الثقافة يجب ان لا تكون ملهاة والعوبة للناس ، وذلك لا يعني أن الرواية لا ينبغي أن تضحك الناس ولكن ان تقرب للجمهور ما لا يمكن أن يفهمه بمجرد الخطب ، ولكن يفهمه بحوادث تخلق ، وحوادث تشخص على اعواد المسرح .

فهذه الثقافة بجميع مظاهرها يجب ان تكون ثقافة مسؤولة ، فالكاتب الذي يكتب ليكتب ه نغير ان يكون هناك دافع لكتابته، هو مثل الاخرق الذى يقف ليتكلم من غير أن يكون لديه شيء يريد أن يقوله للناس .

فالثقافة اذن يجب ان تكون منتزعة من الوسط ، ومن الحقائق التي يحياها الانسان ، وان تكون مسؤولة ، يعني ان لها هدفا ترمى اليه ، فالثقافة من اجل الثقافة هي فكرة انصرف عنها الزمن ، واصبحت في الحقيقة من خبر اولئك الفانين الذين يرفضون انفسهم من المجتمع ، ويعانون أمراضا عقلية ، ويجعلون بينهم وبين الناس حاجزا ، وعند ذلك يكتبون ! لمن ؟ ... يكتبون لانفسهم ! ... هؤلاء قد تكون لهم روائع ادبية ولكن ثقافتهم لا ينبغي ان تكون هي القاعدة ، انما هناك استثناءات ، فالقاعدة هي أن تكون الثقافة أدبا مجندا مسؤولا . أي ان الكاتب يجب أن يكون مسؤولا عما يكتب وما يقدمه للناس .

ذلك أن الكاتب او المثقف في جميع مظاهر نشاطه يشبه المهندس ، فكما ان المهندس يخطط البناءات بقواعد فنية معلومة وتبنى هذه البنايات فتراها مطابقة دائما لقواعد وقوانين معلومة محددة . ـ كذلك المفكر ورجل الثقافة هو مهندس العقل ، هو الذي يهندس عقل الامة ، ويخطط اتجاهها الفكري ، فعليه ان لا يضع فيها الا المسائل التي هي خاضعة لقواعد واهداف

فمهندس العقل او مهندس البنايات كلاهما في الحقيقة يقوم بمهمة ، كلاهما يخضع لقوانين لا للفوضى فهذا هو معنى المسؤولية بالنسبة للمثقف.

واذا تحدثنا عن المسؤولية ، فاننا نجد انفسنا بطبيعة الحال منجرين الى ان نؤكد بان لا مسؤولية الا في ظل الحرية ، والمثقف يجب أن يكون حرا

لان الحرية وحدها اساس المسؤولية ، والمثقف الذي يعيش تحت تهديد السلطات فمقول له يجب ان لا تهاجم احدا ، وان لا تكتب هذا ، أو يجب ان تكتب هذا ، هذا المثقف هو في الحقيقة مضطهد ، ولا يمكن أن يعيش بثقافته الا في ظل الحرية ، فالثقافة اذن تتضمن المسؤولية ، والانسان العقلي هو المثقف الذي يفرض عليه أن يكون مسؤولا امام المجتمع ، فعلى المجتمع ايضا ان يتركه حرا كما ان المفكر يجب أن يكون حرا ازاء المجتمع واذا كان من واجب السلطات أن تترك الحرية للمفكر ان يكتب ، سواء اراد الحاكمون ام لم يريدوا ، فان له الحرية ان يقول ما يشاء ، لانه مسؤول في كلامه مسؤول امام المجتمع ، ومسؤول امام القواعد التي تهدف اليها الثقافة ، وكذلك على المجتمع ان لا يضطهد المثقف وان لا يضطهد المفكر .

فالمفكر هو رائد الحقيقة ، هو الشاهد الامين على هذه الحقيقة هو الذي يرى الاشياء ليقول بان هذا حق أو هذا باطل ، فيجب ان تكون له الحرية ليقول في الحق هذا حق ، وليقول في الباطل هذا باطل ، ولا ينبغي لمجتمع أن يضغط عليه ليصبغ الحقيقة بصبغة الباطل ، او الباطل بصبغة الحقيقة .

انما الاساس هو هذه المسؤولية التي يجب أن يشعر بها ويضطلع بها المثقف نفسه ازاء المجتمع . فهو لا يكتب ليلهو ، ولا يكتب ليعبث ، ولكن يكتب لانه يرى ان في الكتابة نفعا للمجتمع ، لانه يرى أن الاهداف التي يعيش من اجلها المجتمع ، وهي اهداف الخير والحق والجمال ستقوم بالطريقة التي يراها ، اذن على المجتمع ان يترك له كامل الحرية ما دام الكاتب او ما دام المثقف يشعر بمسؤولية ما يقول أو ما يكتب او ما يقدم للناس .

فالثقافة المتحررة اذن يجب أن تكون لمصلحة الجمهور ولكن كما تعلمون يجب ان تكون بعيدة عن تملق الجمهور بل ان تهذب الجمهور عوض ان تتملق له ، ويجب أن تكون متحررة ازاء السلطات ، ولا ينبغي ان يصبح المثقف جنديا يقول ما تمليه عليه السلطات ، بل يجب أن يبقى له كامل الحرية فيما يقول كما انه يجب على المثقف أن يكون متحررا ازاء المجتمع ـ يجب على المجتمع كذلك أن يهاجمه اذا قال شيئا لا يعتقده الناس ، ولكن على الاساس الذي قلت . وهو أن المثقف يجب ان يعتبر الشاهد الامين على الحقيقة وعليه أن لا يدس ولا يدنس ولا يحرف ، وان يقدم لامته كل ما يراه من الوسائل يحنيها من الجمال والحق والخير .

ففي هذه الاطارات يمكن ان تظهر في المغرب ثقافة شعبية متحررة ، متممة لما نريد أن نبنيه من عدالة اجتماعية ومن تحرير للفرد حتى يصبح الجميع تترعرع شخصيته في ظل الحرية التامة ، وفي طريق الخير والحق والجمال .

وكيفما كان دور المثقف ، يجب أن لا ننسى بأنه تأخر نوعا ما عن وقته بالنسبة للجماهير الآن تسبق الطليعة الفكرية ، فيجب أن نعرف بأن هذه الثقافة التي نريد يجب :

يجب أن تكون مسؤولة

وأن تكون حرة

وأن تكون في خدمة الجماهير

هذه هي الشروط التي يمكن بها للفكر المغربي أن ينطلق مرة أخرى ، وبها يمكننا جميعا أن نبني حضارة سواء بالمعنى الالماني الذي يمتزج بالثقافة ، أو حضارة بالمعنى العادي للكلمة ، والسلام .

شؤون فلسطينية

مجلة شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

رئيس التحرير : **محمود درويش**
سكرتير التحرير : **الياس خوري**

الاشتراكات في المغرب : 100 ليرة لبنانية
تبعث الى العنوان التالي
بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات رأس بيروت، ص. ب : 1691) بيروت ، لبنان .

« الآداب »

مجلة شهرية تعنى بشؤون الثقافة والفكر
المدير المسؤول : د. سهيل ادريس .
صدرت منذ 1952 ، ومع ذلك فهي ما تزال حاضرة بيننا باختياراتها القومية ، وتوجهها الوحدوي .
تقارير وملفات تغطي الحركة الثقافية في العالم العربي .
دراسات . نصوص قصصية وشعرية .
تباع في كل الاقطار العربية .
ثمن العدد بالمغرب 7 دراهم .